مقدمة القسم السادس

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

أصبح التنقل من المواضيع الرئيسية في العصر الحديث ، بل أصبح من المبتذل القول إننا نعيش في مجتمعات "سريعة الوتيرة" بشكل متزايد . فمع تزايد سرعة وسهولة التنقل بفضل البنى التحتية للسفر، **أصبح من الأسهل علينا أن نمضي حياتنا "على الطريق"** . وتُعد السياحة اليوم من أكبر الصناعات في العالم ، والمصدر الرئيسي للدخل للعديد من الدول النامية . ويجوب المهاجرون العمال العالم بشبكات سفرهم بين الوطن ومكان العمل ، من الفلبين إلى سنغافورة ، ومن الهند إلى الكويت ، ومن تركيا إلى ألمانيا ، ومن المكسيك إلى الولايات المتحدة . وفي الصين ، غادر أكثر من 150 مليون مهاجر منازلهم الريفية للعمل في المدن ، مما ساهم في نمو التصنيع والتحضر على نطاق غير مسبوق . **تعج المدن بالغرباء** ، وربما تكون هذه الحقيقة أكثر من أي حقيقة أخرى هي التي أسرت خيال علماء الحداثة . فالمدن ، كتجمعات للمهجرين ، هي أماكن للتنقل . وقد منح هذا المدينة أيضًا طابعًا تحرريًا للكثيرين . **عندما يكون الجميع غرباء ، لا تنطبق عليهم أعراف المجتمعات التقليدية** . **إذًا ، لا يقتصر التنقل على مجرد اقتلاع السكان ونقلهم من مكان إلى آخر ، بل يرتبط بتغيرات اجتماعية أكثر جوهرية .**

ومع ذلك ، فإن قول هذا يعني ضمنًا ثنائية بين التنقل - الحداثة من جهة ، والسكن - التقاليد من جهة أخرى . وكما أوضح الجزء الثاني من هذا الكتاب ، فقد نُظمت أعمال العديد من الجغرافيين السابقين حول هذا النوع من التقسيم تحديدًا : المدن الصناعية الحديثة المتنقلة مقابل القرى الريفية التقليدية الثابتة . وكما أُشير في مختارات مختلفة في الجزء الثاني ، ركزت الكثير من الأعمال المبكرة في الجغرافيا على الريف ، والثقافة الشعبية ، وما قبل الصناعي . كان يُنظر إلى الثقافة على أنها "تنمو" عضويًا من التربة ، مثل النبات . فالمصطلح ، في نهاية المطاف ، له جذور اشتقاقية في حرث الأرض وزراعتها (للنباتات والمحاصيل). بالنسبة لجغرافيين مثل راتزل أو فيدال دي لا بلاش ، **استقرت الثقافة في مكان ثابت ، مغروسة في التربة ، وهذا الارتباط العضوي بالأرض هو ما أنتج التمييزات الإقليمية** ، أو ما يُعرف بأنماط الحياة عند فيدال . في هذا السياق ، لا بد من عد العمليات التي اقتلعت الناس من هذه المناطق الثقافية العضوية مُزعزعة للاستقرار.

وكانت فكرة تجذر الأمم والمجتمعات في الأرض امتدادًا منطقيًا لهذا النوع من التفكير . وعندما سعى الجغرافيون لوصف الهوية الثقافية الحقيقية لأمة ما ، لم يكن من المستغرب أن يتطلعوا إلى سكان الريف الهادئين بحثًا عن آخر آثار ثقافة نقية . ومرة أخرى ، نُظر إلى التنقل على أنه انحراف في تعريف المجتمع أو الأمة . وبالطبع ، يمكن إيجاد استثناء مهم لهذا في كثير من الخطابات حول الشخصية الأمريكية ، التي عادةً ما تُفهم بمصطلحات أكثر تنقلًا . بالإضافة إلى تصور الثقافات والأمم والمجتمعات بمصطلحات ثابتة ، مرتبطة بمكان ، وإقليمية ، يُنظر إلى **الوطن** نفسه عادةً على أنه مكان متجذر وثابت . ولعل هذا هو السبب وراء الخلط بين مفاهيم الوطن والإقليم والأمة . يُمثل "الوطن الأم" أو "هايمات" ربطًا للهوية بفكرة المكان الثابت ، **وهو فضاء إقليمي ذو حدود واضحة ، يسكنه أناسٌ يحملون ثقافة مشتركة "نمت" من تربة ذلك المكان** . وليس من قبيل الصدفة أن الوطن الأم يرتبط الآن ارتباطًا صريحًا بالأمن في الولايات المتحدة بعد

أحداث 11 سبتمبر . وبينما يحمل مفهوم "هايمات" نفسه تاريخًا جيوسياسيًا مُقلقًا - فقد استُخدم مصطلحًا للتعبير عن المخططات التوسعية لألمانيا في عهد النازيين - فإن تجذر الوطن هو بالتأكيد "حاجة عميقة للروح البشرية" . السكن في منزله الوطن ، عند فلاسفة مثل غاستون باشالار (شاعرية المكان ، 1964) ومارتن هايدغر (البناء ، السكن، التفكير، 1971) ، هو أبسط أشكال الوجود (انظر أيضًا مقدمة الجزء الخامس).

ومع ذلك ، فبينما يُعد السكن في المكان هو الحالة الطبيعية للأشياء ، لطالما وُجد مسافرون ، وبدو ، ومتجولون ، وغرباء لم ينسجموا مع هذه القاعدة . من جانب ، لطالما كان هؤلاء الغرباء أساسيين في مساعدة أهل الداخل على رؤية أنفسهم طبيعيين . كما أشار إدوارد سعيد ، إلى أن الآخرين من الخارج يلعبون دورًا في مساعدة أهل الداخل على رؤية أنفسهم متشاركين في هوية ثقافية مشتركة . ولكن يجب أن نتذكر أيضًا أن المنفى ، والبدو ، والمتجول يحتلون مكانة مركزية في أدب الغرب ، والأساطير ، والفولكلور . ينعكس هذا على أبسط المستويات ، على سبيل المثال ، في نفي آدم وحواء من جنة عدن ، ورحلة يسوع المسيح إلى البرية ، ونفي اليهود العديدة ، وتجوال إبراهيم . وينعكس ذلك في ملاحظة أن عددًا مفاجئًا من كلاسيكيات الأدب الغربي كتبها كتّاب يعيشون في المنفى . وينعكس ذلك ، كما ادعى سيميل في المختار الأول من هذا الجزء ، في الدور المركزي "للغريب" في تكوين المجتمع الحديث . وينعكس أيضًا في ادعاء سعيد أن الوضع الحديث - بجموعه من اللاجئين وغيرهم من المهجّرين - ينقل أكثر من أي شيء آخر "حالة معممة من التشرد".

لعلّ من الغريب إذن أن يهيمن على العلوم الاجتماعية الحديثة ما تُشير إليه ليزا مالكي بـ "ميتافيزيقيا الاستقرار" التي تُعد فيها الإقامة في مكان ثابت ومحدود هي القاعدة . في حين أن اختيار جون ماي في هذا الجزء يوضح أنه لا ينبغي الشك في الحاجة الإنسانية الأساسية إلى "مكان سكن" ثابت وموثوق به إلى حد ما ، فإن ثنائية المسكن / السكن / التشرد / الحركة تجعل من الصعب عد الحركة بأي شكل من الأشكال سوى خلل وظيفي أو انحراف . لا ينبغي النظر إلى السكن والحركة كطريقتين متعارضتين ومتميزتين للوجود ، إحداهما طبيعية والأخرى غير طبيعية . بدلاً من ذلك ، يجب عد السكن والحركة مرتبطين بالضرورة ، وكما هو الحال في جميع الثنائيات ، مترابطين بشكل متبادل . حتى علماء الظواهر في السكن يدركون أنه بينما قد يكون السكن الشرط الأساسي للوجود ، فإن الحركة أيضًا جزء أساسي من السكن . وكما يجادل إدوارد كيسي (العودة إلى المكان ، 1993) ، فإن الحركات الاعتيادية للجسم ، ودوائرنا المنظمة من السفر الجزئي ، ومساحات الحركة التي نصنعها لأنفسنا - هي ما يصنع المكان – المنزل . ثم هناك الملاحظة العامة القائلة بأن المرء يجب أن يغادر وطنه ويعود إليه قبل أن يُدرك قيمته .

في الصين ، لم تظهر فكرة هوية الوطن الأم إلا بعد أن تمكن عدد كافٍ من المهاجرين من العثور على بعضهم البعض في المدن البعيدة وتكوين روابط مع الوطن الأم . لذا ، يمكننا أن نسكن في الوطن وفي الغربة ، أي بالانتقال إلى المكان . بالطبع ، أصبح من الأسهل الآن رؤية مشكلة معاكسة . إذا كانت "ميتافيزيقيا الاستقرار" التقليدية تُمثل القاعدة التي يجب على العلوم الاجتماعية تجاوزها ، فإن كرانج يطرح مشكلة معاكسة في تعليقه على التنقل : "ماذا يعني السكن في مجتمع متنقل ؟" إذا أصبح التنقل هو القاعدة بشكل متزايد ، فقد يصبح التحدي في الواقع هو فهم كيف ما يزال السكن ممكنًا . وهذه هي المشكلة التي تواجه ماتياس وو في كتابه "مدينة جيدة جدًا" ، كما نوقش في مقدمة القارئ . هل الوطن يسافر ؟ هل المكان يسافر؟ في أحد الأقسام الاتية ، يُجادل جيمس كليفورد بأن الثقافات ليست ثابتة في مكانها ؛ بل هي تسافر . ولكن من الواضح أن الأوطان إذا سافرت ، فإنها تفعل ذلك بصعوبة بالغة بالنسبة لمعظم الناس . ومع تزايد عدد اللاجئين في العالم

، فإن رؤية كليفورد الاحتفالية للثقافات المتنقلة - على الرغم من دقتها التقنية - قد تُمثل إهانةً لأولئك الذين أُجبروا على مغادرة أوطانهم .

ومع ذلك ، فمن الواضح ، كما يُجادل جون أوري في كتابه "علم الاجتماع لما وراء المجتمعات" (2000) ، أنه في مفاهيمنا عن الثقافة والمجتمع ، تحل استعارات الشبكة والتدفق والسفر محل استعارات المنطقة والوطن . يعتقد أوري أن "الناس يسكنون في ومن خلال وجودهم في الوطن وخارجه ، من خلال جدلية الجذور والطرق أو ما يُطلق عليه كليفورد "السكن في السفر"" . كما أوضح الجزء الثاني ، كان لجغرافيي الثقافة الكثير ليقولوه عن الأوطان العضوية ، والأماكن الثابتة للثقافة المتجذرة . إلا أنهم لم يقولوا الكثير حتى وقت قريب عن التنقل . تقدم المختارات في الجزء السادس مجموعة من الردود عن كيفية تناول التنقل في سياق جغرافية الثقافة ، وكيف تغيرت مفاهيم الوطن نتيجةً لذلك .